كتاب الانتصار

محاجة بين الشيعة والمعتزلة

(متمم لمقال العدد الماضى)

فقد تبين أن للفرق الاسلامية أثراً عظيما فى تكوين دول للاسلام وآدابه وعلومه . وأن لابد للباحث فى تاريخ الاسلام من درس هذه الفرق ومعرفة آرائها وتفهم حياتها . وأن السبيل الى هذا الدرس قد طمست بما عمدت اليه كل طائفة من مقاومة آثار غيرها وتحريق كتبها وتحريف آرائها فاذا وجدنا كتابا حرره أمام فرقة يذود عنها ويبين حججها فقدظفرنا بسند تاريخ ذى قيمة عظيمة ونفع كبير . وذلك ما نجده فى كتاب الانتصار فان متكلما شيعياً من أحذق المتكلمين وأعرفهم بالجدل وهو أبو الحسن احمد بن يحيى الراوندى يدافع عن الشيعة ويؤيد آراءها ويقيم حججها ويهاجم المعتزلة فيصيب أقوالهم ويدحض بيناتهم وينبرى له علم من أعلام المعتزلة كان فى غاية الشهرة بعلمه باختلاف المتكلمين ومنزلته بين النظار الباحثين وهو الامام أبو الحسن عبد الرحيم الخياط فيدفع عن طائفة المعتزلة ويرد مايتهمهم به الشيعة فى كتاب الانتصار فهو محاجة بين أمامين شيعى ومعتزلى حررت فى القرن الثالث من الهجرة وسامت على صروف الأيام حتى بقيت لنا الآن

ونحتاج فى فهم هذا الكتاب الى كثير من الصبر والاطلاع والمعرفة بآراء هذه الفرق فانها محاجة لايراد بها بسط القول وأفاضة الشرح فى أصول المسائل ولكن يقصد الى ذكر مواضع الخلاف وأنواع المآخذ فتشرح

بقدر ما توجبه الحاجة من دحض حجة الخصم وابطال قوله . وأكثر مواضع الخلاف دقيق المسلك عسر البيان فالقول فى جبر الانسان واختياره وفى الارواح والأعراض والأجسام وفى الظهور والكمون والتولد والمعانى وغيرها مما تجده فى ابحاث المتكلمين . ولكنه ينفعنا من هذا الكتاب أن الشيعى يذكر من قول المعتزلة وجه الضعيف وناحية المأخذ فيجئ المعتزلى ويشرح الرأى ويواطده ويبين حجته فيتسع لنا موضوع من البحث اكثر ما يهمنا منه أن نعرف رأى كل طائفة من قول أمامهم وسبيل تدليلهم عليه ومبلغ تمسكهم به

واذا بدأ الكتاب وجدت الراوندى الشيعى يشكو من أن المعتزلة يأخذونهم بآراء بعض الغلاة منهم وينسبون اليهم من الاقوال والآراء ما ينكره جمهور الشيعة ويتبرؤون منه وأن المعتزلة قصدوا الى ذلك على علم بضعفه وقلة القائل به وبراءة الجمهرة الكاثرة منه رغبة فى تسرىء المذهب وتشويه آراء أهله . ثم يناقش آراء أئمة المعتزلة فيبدأ بأمامهم محمد ابن الهذيل وقد كان من عظام رجالهم فى القرن الثالث والرافعين لواء الجدل والقادرين فيه وكان المأمون يعقد المجالس للمناقشة فى العقائد برئاسته . فيأخذ عليه قوله بتناهى علم الله وقدرته : أما الخياط فيكذبه فى نسبة تناهى علم الله الى أبى الهذيل ويفصل فى تناهى القدرة اذ يقول أن المقدورات حادثة وانها لاشك تتناهى وأن تناهى القدرة يكون بتناهى متعلقاتها من الحوادث

ثم يناقش الامامين ابراهيم بن سيار النظام وعثمان بن بحر الجاحظ وينسب اليهما قولهما بعجز الله أن يوقع الظلم ويدافع الخياط بأن الله عدل

والعدل واجب له لذاته والظلم محال عليه والقدرة لا تتعلق بالمحال

ويستمر الراوندى فى مناقشة آراء المعتزلة ثم ينتهى الى الدفاع عن أقوال فرقته فيشرح أصولها ويدفع النسبة التى ترمى بها ويتلخص لك من هذا الحوار بعد طول نظر وبعد اطراح لكثير من المسائل الفرعية أصول عقائد المعتزلة والشيعة

فأما المعتزلة فأهم أصولهم القول بالتوحيد والعدل وبالمنزلة بين المنزلتين وذلك أن كثيراً من الامم الاخرى قد دخلت الاسلام فى هذا الوقت ومعها بقايا من الشرك والتشبيه وآثار من الوثنية التى كانوا فيها فشبه الله بغيره فى الجسم والوجه والعين ونحوها فأخذ المعتزلة فى تمحيص عقيدة التوحيد ونفى التعدد والتشبيه عنه تعالى وقالوا أن الله واحد من كل الوجوه حتى لم ينسوا له صفة تستدعى تعدد القديم فقال انه قادر بذاته وعالم بذاته وليس هناك شىء زائد على الذات يسمى قدرة أو علماً . ونشأت المقالة فى قدرة الانسان وخلقه افعاله واختياره أو جبره فى أعماله فقال قوم بالجبر وبأن الانسان مرغم لا يخلق شيئاً من أفعال نفسه ورأى المعتزلة أن الانسان يخلق أعمال نفسه وأن الشر منها والخير منسوب اليه أما الله سبحانه وتعالى فهو حكيم عدل لا يفعل الظلم ولا يقع منه شر وانه واجب له لذاته أن لا يفعل لعباده الا الصالح والأصلح لهم . ثم نشأ الخلاف فى المسلم المجرم بفعل الكبيرة . أهو مؤمن وقد وعد الله المؤمنين جناته وكتب لهم ثوابا أم هو كافر وقد أعد الله للكافرين عذاباً عظيما خالدين فيه . فرأوا أن فاعل الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين الكفر والايمان

أما الشيعة فأهم اصول مذهبهم وجوب الامامة فى ولد على ولزوم امام فى كل عصر وعصمة الامام ليرجع الله سواء كان ظاهراً أو مستوراً : وقولهم بجواز الرجعة وجواز البداءة على الله تعالى . وذلك أن أساس التشيع هو تفضيل على وولده وقصر الخلافة عليهم ولا يصح أن يكون خليفة إلا من كان من نسل على ذلك أصلهم ثم اختلفوا فيمن يكون أولى بالخلافة من ولده وانقسموا بذلك الى طوائف متعددة . ولما كان ولد على قد حرموا من الخلافة وقوتلوا وطردوا لمطالبتهم بها فأختفى بعضهم فى نواحى البلاد وبث الدعاة وبالغ فى الاختفاء حتى عن أكثر اتباعه منتهزاً الفرصة للظهور والأخذ بزمام الآخر . رأوا أن الامام يجوز أن يكون مستوراً وجعلوا ذلك من أصل مذهبهم وكان الامام مرجعهم فى كل ما يختلفون فيه من اصول الدين وأحكامه فقالوا بعصمته وباستحالة الزلل عليه والخطأ منه ورأوا أن الامام يصح أن يقتل ثم يعود الى الدنيا فيبعث فى الناس يقوم بالأمر ويحيي العدل ويرفع شأن طائفته واستدلوا لهذا بأمر عيسى عليه السلام وبكثير من الآيات القرآنية . أما البداءة على الله تعالى فيرون أن الله يصح أن يرى رأياً ثم يبدوا له غيره فينقضه وهم يشبهون هذا بالنسخ فى الأحكام

فقد لخصت لك ما استطعت من الكتاب وما لا يغنيك عن الرجوع اليه إذا شئت التوسع والاحاطة بما عمل الدكتور العالم نيبرج الاستاذ بجامعة ابسالا فى تصحيح الكتاب والتعليق عليه والعناية بشرحه فهو ماسنبينه فى كلمة تالية إن شاء الله

ابراهيم مصطفى

المفتش بالجمعية الخيرية الاسلامية